«٢٠»

عوض بن عمر القعيطي

باني السلطنة - قدومه إلى حضرموت - السلطان الأول - التطلع إلى الساحل - احتلال الشحر - محاولة خطيرة - الاستيلاء على الغيل - حصن العولقي - احتلال الموانئ الشرقية - هجوم آل كثير على شبام - الخلاف بين القعيطي والكسادي - تسليم المكلا إلى القعيطي - معاهدة الحماية - الأميران حسين ومنصّر - وادي دوعن - منطقة حجر - وصيته - وفاته

❖ باني السلطنة:

ولد في الهند بحيدر أباد الدكن في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، وقضى هناك فجر شبابه متلقياً ما تسمح به ظروفه من مبادئ العلوم، وكان معروفاً منذ صغره بوفرة الذكاء ورجاحة العقل وحسن الاستعداد، وبالرغم من نشأته في وسط أرستقراطي تغمره مظاهر الثراء والترف فقد نشأ كامل الرجولة، ميالاً إلى الخشونة والتقشف، محافظاً على الأخلاق، مواظباً على أداء واجباته الدينية، فلم تبطره النعمة، ولم تعْلَق بأخلاقه وسلوكه هنات المترفين.

وكان ملازماً لحضور مجالس والده التي تغص دائماً بكبار الحضارم من يافع وغيرهم، فكان يستمع بكل دقة وإمعان إلى ما يدور في هذه المجالس من أخبار حضرموت وحوادثها، ويستوعب في ذهنه المتوقد كل ما يفوه به المطلعون على أحوال البلاد الحضرمية، فنشأ كأنه عاش في

حضرموت من فرط ما علق بذهنه من مسميات وأعلام وحوادث، وتاريخ قديم وحديث.

ويعتبر الجمعدار عوض بن عمر الرجل الأول الذي يعود إليه الفضل الأكبر بعد والده في إنشاء السلطنة القعيطية والسهر على حمايتها، وإذا كان والده هو المؤسس الأول لها، وصاحب الفكرة الأولى في تكوينها فإنه يعتبر بحق بانيها ومشيّد دعائمها وأركانها، وإذا لم يكن هو أسن إخوانه فقد كان أكثرهم نشاطاً وجلداً وحماساً، وأوفرهم ذكاء ويقظة، وأشدهم طموحاً وتطلعاً، وكان والده يقدر فيه هذه الصفات، ويحلّه من نفسه محلاً خاصاً وكثيراً ما يعتمد عليه في حل ما يعرض عليه من مشاكل، ويعير آراءه ما تستحق من أهمية.

❖ قدومه إلى حضرموت:

قدم الجمعدار عوض بن عمر إلى حضرموت المرة الأولى سنة ١٢٦١هـ، وقد وصل إلى «الريضة» ليباشر تنفيذ الخطط التي رسمها والده لإنقاذ يافع وإنشاء السلطنة، فكان يشترك مع أخويه محمد وعبدالله اشتراكاً فعلياً في تسيير دفة الأمور، والأمر الذي يستحق الإعجاب والتنويه أن أبناء الجمعدار عمر بن عوض كانوا جميعاً في حياة والدهم وبعد وفاته مثال التعاون والتساند والأخوة الصادقة والمحبة الصحيحة التي انتدبهم لها والدهم العظيم.

وقد عاد الجمعدار عوض بن عمر مرات إلى الهند في مناسبات تتعلق بالشؤون العسكرية والسياسية في حضرموت للاتصال فيها بأبيه القائد الأول والتشاور معه بصددها واتخاذ التدابير الحربية والمالية بشأنها، ولرُبَّما اضطرته الظروف وهو بحضرموت للإقدام على بعض التصرفات المستعجلة فيوفق فيها ويقره والده عليها، ويثني على جرأته وإقدامه وحسن إدراكه، وقد استطاع أثناء توليه السلطنة وقبلها أن يكسب عطف أعيان حضرموت

وسادتها بحسن سياسته ومرونته وبُعْد نظره، رغماً عما قد تشبّع به الجو الذي يحيط به من نفور عن العشائر اليافعية بسبب الإشاعات التي انتشرت عنهم أثناء الفوضى السياسية التي كانت تغمر البلاد.

❖ السلطان الأول:

كان الجمعدار عوض بن عمر هو الخليفة الشرعي لوالده بالاشتراك مع أخويه عبدالله وصالح، كما تنص على ذلك وصية الجمعدار عمر بن عوض التي سبقت الإشارة إليها في ترجمته، فقد أوصى بأن يكون هؤلاء الثلاثة فقط من أبنائه خلفاءه والقائمين بالأمر من بعده، وأوصى ابنيه محمداً وعلياً بالطاعة والامتثال لهم، فأخذ الجمعدار عوض بن عمر عقب وفاة والده يعالج الشؤون الحربية والسياسية بكل ما عرف عنه من حنكة ودهاء وسياسة لاقياً من إخوانه الأربعة كل عون وتأييد، فقد كان هو ألمعهم اسماً وأبرزهم شخصية وأقدرهم على مواجهة الصعاب والتغلب عليها.

والجمعدار عوض بن عمر هو أول من أطلق عليه لقب السلطان من العائلة القعيطية المالكة، فقد أصدرت حكومة الهند أمراً سنة ١٩٠٢م بأن يطلق لقب السلطنة على الأمير عوض بن عمر وخلفائه من القائمين بالأمر بعده، بدلاً من لقب الجمعدار الذي يعبر في الاصطلاح الهندي عن رتبة عسكرية خاصة، وذلك بعد أن أصحبت السلطنة القعيطية ذات كيان خاص معترف به.

❖ التطلع إلى الساحل:

وكان الحصول على منفذ إلى البحر من أهم الأمور التي تشغل بال الجمعدار عوض بن عمر فلا بد من أن تسيطر دولته الناشئة على ميناء تتلقى بواسطته الإمدادات الحربية والمالية من الخارج وتجعل منه قاعدة لتوسعها في الساحل والحد من طموح منافسها الخطير السلطان غالب بن محسن

الكثيري، وإذا كان غالب بن محسن الكثيري قد فكر نفس التفكير فسبق إلى احتلال الشحر وطرد أميرها علي ناجي بن بريك سنة ١٢٨٣هـ فتلك فرصة هيأتها الأقدار لتدخل القعيطي في شؤون الساحل دفاعاً عن الحقوق اليافعية المسلوبة وحماية لنفوذهم ومصالحهم في الساحل.

❖ **احتلال الشحر:**

قدم السلطان عوض بن عمر من الهند في ٢٣ رمضان سنة ١٢٨٣هـ على رأس مائتي مقاتل من مهاجري يافع بالهند وخمسمائة من الهنود الرويلة، ومعه ثلاث بواخر وست سفن شراعية مزودة بعشرين مدفعاً وذخائر كثيرة، وقدم الشيخ علي الحريبي أحد رؤساء يافع من بلاد اليوافع يقود ألفاً وخمسمائة «١٥٠٠» من شجعانهم، ووصل من القطن الجمعدار محمد بن عمر القعيطي ومعه مائتا مقاتل من يافع ومواليهم وثلاثمائة من الحلفاء، كما وصل من نجد الأمير منصور بن حسين بن قملا يقود خمسمائة من رجاله بينهم مائة فارس.

وفي ٢٤ من ذي الحجة سنة ١٢٨٣هـ هاجم المدينة ثلاثة آلاف مقاتل من الجنوب والغرب والشمال، وأسرع المهاجمون من البحر بزوارقهم إلى البر، حيث أنزلت الرجال والمعدات الأمر الذي سهل لبقية الجيش اقتحام الأسوار والهجوم المباغت السريع فلم يقاوم آل كثير سوى يومين فقط، انهزموا بعدها تاركين زهاء أربعين قتيلاً، وقتل من يافع ستة عشر رجلاً، وعاد السلطان غالب بن محسن إلى حضرموت بفلول جيشه.

وعاد السلطان غالب بن محسن لاستئناف الهجوم على الشحر في رجب سنة ١٢٨٤هـ مدفوعاً بإغراء ومساعدة الجمعدار عبدالله بن علي العولقي صاحب حصن الصداع، وكان هذا الرجل من أولي المطامع السياسية ومن أصحاب الثروات الواسعة، وكان السلطان عوض بن عمر في الشحر على رأس ألف مقاتل من يافع أثناء هجوم آل كثير عليها، ونجح

المهاجمون في الاستيلاء على أكثر من ثلثي المدينة بعد قتال شديد دام ستة أيام حتى أنهم احتلوا دار باجمال المواجهة لدار ناصر التي يقيم فيها السلطان عوض بن عمر.

واشتد ضغط آل كثير على حامية المدينة، وأشار رؤساء يافع على السلطان عوض بأن يكون في إحدى السفن الراسية بالميناء لينجو بنفسه إذا قدرت عليهم الهزيمة، فرفض وأطلعهم على خنادق البارود التي أحاطها بدار ناصر، وقال لهم: إنه صمم على أن يشعل هذا البارود ليموت تحت جدران الحصن هو ومن معه إذا كتبت عليهم الهزيمة، ورأى رؤساء يافع أمارات الجد في ملامح وجه قائدهم الأول، فجدد ذلك من حماسهم وبث فيهم روح المغامرة، فاندفعوا في شوارع المدينة يلقون بالسلاح الأبيض كل من وجدوه من آل كثير حتى اضطر آل كثير للانسحاب، متوهمين أن مدداً قد وصل ليافع تاركين مائة وعشرين قتيلاً وستين جريحاً وعشرين أسيراً، واستولت الجنود اليافعية على جميع ما خلفوه من مؤن وذخائر، وقتل من يافع أربعة وعشرون وجرح عشرة.

❖ محاولة خطيرة:

أقلقت الجمعدار عوض بن عمر تلك الهجمات العنيفة التي يقوم بها غالب بن محسن الكثيري، والتي تعرقل خططه الحربية وتكلفه خسائر فادحة في الأرواح والأموال، فحاول غزو العاصمة الكثيرية ليكون - إذا نجح - في مأمن من أي عدوان يفسد عليه برنامجه السياسي والحربي.

جمع ما لا يقل عن سبعة آلاف جندي من يافع ومماليكهم ومن الهنود الرويلة وآل تميم وقبائل نهد والقبلة مثل الكرب ودهم ويام وغيرهم من سائر القبائل، وقد تجمعت هذه الجيوش على حدود المنطقة الكثيرية قادمة إليها عن طريق العبر وشبوه، ووادي العين ووادي حذية وعقبة الفقرة، وكان النقيب صلاح بن محمد الكسادي أمير المكلا مشتركاً في هذه الحملة

بخمسمائة جندي من أتباعه وبمائة ألف ريال استدانها من القعيطي مساهمة منه في نفقات الجيش.

وقد تكاملت هذه الجيوش مستعدة للهجوم في أواخر رجب سنة ١٢٨٥هـ بقيادة الأمراء محمد وعوض وعبدالله وعلي أبناء الجمعدار عمر بن عوض وكبار رؤساء يافع.

وفي مستهل شعبان سنة ١٢٨٥هـ بدأوا هجومهم فهاجمت الموسطة وآل تميم ونهد وقبائل القبلة دار الهاجري والمحايل وقسبل وهي حصون الدفاع الغربية لسيئون، واخترق آل الضبي بقيادة أحمد عامر الحضرمي ويافع الجبل المسيلة مستهدفين سيئون، وهاجم الهنود ومماليك القعيطي وأخلاط القبائل بحيرة وهدامة - المحترقة - فاحتلتها بعد مقاومة بسيطة من حامية هدامة، وكان مهمة هذه الفرقة المحافظة على خط الرجعة وتأمين المواصلات لمهاجمي سيئون، أما الجيش الزاحف بطريق عقبة الفقرة بقيادة علي صالح الجهوري فكان هدفه احتلال تريم ومشاغبة آل كثير من الخلف.

لقد كان هذا الجيش الكثيف مزوداً بأحسن الأسلحة وكامل المعدات، وكانت الخطة الحربية التي وضعت له محكمة ومنظمة، ولكن الزمام كان قد أفلت من يد القيادة العامة واختلف الجنود وتنازعوا ولم ينفذوا أوامر القيادة العليا، ودب إلى صفوفهم التخاذل وسوء النية، فكانت النتيجة لذلك هي الهزيمة والانسحاب، وتكبد الخسائر في الأرواح والمعدات.

فقد وصلت طلائع مهاجمي سيئون حوالي تريس، وكان كل شيء يبشر بنجاحهم لو نفذت الخطة المرسومة، ولكن إخوانهم من الموسطة تحت دافع من تأثير الحسد والأنانية بدأوا يتخاذلون زاعمين بأن احتلال سيئون لن يستفيد منه سوى آل الضبي الذين سيصبحون حكام المدينة وسادتها فما لهم يقدمون أرواحهم ثمناً لغنيمة ليست لهم، ألا يكفي أنهم خلصوا مدينتهم شبام من أيدي خصومهم؟ ومع ذلك فهم يرون آل كثير يستميتون في

الدفاع في المعارك التي خاضوها معهم بسبب وجود القوة الرئيسية منهم هناك، ولأنهم يعتبرون المعركة معركة حياة أو موت بالنسبة لهم، فدبّ الفشل في قبائل الموسطة وانسحبوا من مراكزهم الأمامية دون أن تلحق بهم أية خسارة، وبذلك تمكن آل كثير من ضرب مهاجمي سيئون من الخلف بغتة فانهزموا، وبانهزامهم انقطع خط الرجعة على مماليك القعيطي والرويلة ومن معهم فانسحبوا بعد أن قتل منهم سبعون وجرح أكثر من أربعين، ولولا مهارة قائد هذه الفرقة لم ينج منها أحد، وتعرف هذه المعركة بمعركة هدامة.

أما الفرقة الزاحفة إلى تريم بطريق عقبة الفقرة فقد طمع الحموم فيما معهم من مؤن وعتاد من جهة، وأحبوا مساعدة آل كثير من جهة أخرى، فأوعز المقدم ابن مجنّح - زعيم بيت علي - إلى البدو في قافلة الحملة أن يتخلوا عن القافلة، ففعلوا وهاجمها برجاله في المكان المسمى «الغلاغيل» فجأة، فقتل القائد علي صالح الجهوري وابنه عبدالقوي وعشرون من يافع وانهزم الباقون تاركين جميع ما في القافلة من أقوات وعتاد حربي، وتسمى هذه الحادثة بواقعة «الغبيضات».

وكان من أبرز القتلى في حملة سيئون القائد الباسل أحمد عامر الحضرمي، فقد احتل قارة آل عبدالعزيز بجيشه المنسحب من هدامة، ولكن حصن الصقعان ظل يدافع حتى سقط القائد صريعاً في الميدان فلاذ جنوده بالفرار إلى شبام، وهكذا قضى على تلك الحملة الكبيرة والاستعداد الهائل بالفشل الذريع.

ومما يذكر بهذه المناسبة أن النقيب صلاح بن محمد الكسادي لم يقم بأي دور إيجابي في هذه الحملة هو الآخر، فقد كان يتوجس شراً من مطامع القعيطي التي لا تقف عند حد، ويرى أن انتصار القعيطي في هذه المعركة الحاسمة ليس في صالحه، ثم هو في نفس الوقت يخشى أن تهاجم

المكلا وهو على رأس أكثر جنوده في داخل حضرموت، وكان ذلك من بين عوامل الهزيمة.

أما السلطان عوض بن عمر فلم يضعف من عزيمته ما حل بخطته من فشل، فقرر السفر إلى الهند ليستعد للقيام بحملة أخرى للقضاء على سلطة ونفوذ العولقي وغيره من أنصار آل كثير في الساحل، فسافر في شوال سنة ١٢٨٥هـ.

❖ الاستيلاء على الغيل:

كان آل عمر باعمر أقدم قبيلة مسلحة تسكن غيل باوزير قد عقدوا اتفاقاً مع القعيطي بعد استيلائه على الشحر سنة **١٢٨٣**هـ، وافقوا بموجبه على أن يرسل القعيطي من يمثله في الغيل، فأرسل إليها عنبر عبيد أحد موالي آل الرباكي اليافعيين فأقام فيها مدة جاعلاً مقره حصن الرقيمي الواقع شرقي المدينة، وكان يفصل في القضايا التي تعرض عليه ويباشر ما تمكن مباشرته من سلطته.

وكانت الغيل في تاريخها السياسي القديم تتبع دائماً السلطة السياسية التي تحكم الشحر وتخضع لها لأسباب اقتصادية في الغالب، فالشحر هي الميناء الوحيد الذي كان سكان الغيل يعتمدون عليه في التصدير والتوريد وشراء ما يحتاجون إليه من الأقوات والبضائع فلا يمكن أن تستقل عن الشحر أو تعادي السلطة القائمة فيها لاحتياجها إليها في اقتصادياتها المهمة.

وعلى هذا الأساس خضعت الغيل للسلطنة الكثيرية الأولى ثم لابن بريك عندما احتل الشحر، وعادت إلى سلطة آل كثير بعد استيلاء غالب بن محسن على الشحر، فلما احتلها القعيطي بادر آل عمر باعمر إلى إعلان خضوعهم، وهم يعلمون عدم موافقة آل كثير والعولقي على هذا التصرف.

ولكنهم عادوا تحت تأثير العولقي وآل كثير وإغرائهم فرفضوا الخضوع

لسلطة القعيطي، وأنذروا عامله عنبر عبيد بأن يبارح الغيل، وأخبرني أحد المطلعين من آل عمر باعمر بأن آل كثير فكروا في اغتيال عنبر عبيد، فصدهم عن ذلك عقلاء آل عمر باعمر وذهبوا به إلى الشحر في حراستهم حيث أبلغوه مأمنه.

وعجلت هذه الصدمة التي تلقاها السلطان عوض بن عمر بإبراز الفكرة التي تدور برأسه، فقرر احتلال شحير تمهيداً للزحف على الغيل، فأرسل قوة كبيرة من يافع في نفس اليوم الذي قدم فيه عامله مطروداً من الغيل استولت على شحير دون سابق إنذار، وقبل أن تغرب شمس اليوم الذي تحركت فيه من الشحر، ولم تلق أمامها أية مقاومة.

وشعر العولقي وآل كثير بضياع الفرصة التي كان الواجب أن يكونوا هم المستفيدين منها، فإن القبائل المقيمة في شحير جميعها موالية لهم وسترحب باحتلالهم لها، حيث يكون هذا الاحتلال درعاً يقي غيل باوزير من الهجوم القعيطي المنتظر، ومع ذلك فلا بد للدفاع عن الغيل من إرغام القعيطي على إخلاء شحير، وأعدوا عدتهم للهجوم عليها في صفر سنة ١٢٩٢هـ، ولكنهم فشلوا وارتدوا خائبين.

وكانت الغيل في هذه الفترة ميداناً لتجمعات جنود العولقي وآل كثير وأتباعهم من قبائل الحموم وغيرهم، وكان الهدف من هذه التجمعات الاستعداد للهجوم على الشحر بقيادة الأمير عبود بن سالم الكثيري وعايض بن سالمين بن طالب الكثيري، وأدرك القعيطي أن آل عمر باعمر في الغيل من الضعف والتأرجح في الاتجاه بحيث لا يقوون على مقاومة الضغط الكثيري، ولذلك فلا بد من حسم الموقف، والقضاء على مشاغبات العولقي وآل كثير باحتلال هذه المدينة التي تهدد سلامة الشحر وتكوِّن خطراً على نفوذ القعيطي في الساحل.

أما آل باوزير أصحاب النفوذ الروحي في هذه المدينة فقد حافظوا

على حيادهم بين المعسكرين أتم المحافظة، ولم ينحازوا إلى أحد الفريقين فكانوا موضع احترام الجميع وتقديرهم، وكان لهم من نفوذهم على قبائل الساحل واحتفاظهم بموقفهم المشرّف قوة تبعث الفريقين المتحاربين على التنافس في خطب ودهم وكسب ولائهم، ولذلك لم يتعرض أحد منهم لسوء عند هجوم جنود القعيطي على الغيل، ولم تفتش بيوتهم ولا بيوت أتباعهم.

وتحركت قوات القعيطي في أواخر رجب سنة **١٢٩٢**هـ متجهة إلى الغيل، وكانت مؤلفة من ألف وستمائة مقاتل بقيادة سعيد أحمد الحضرمي وسعيد بن علي النقيب وسعيد حيدر البكري، وعسكرت جنوب شرق الغيل في الموضع المعروف بقارة المجوّب، ولحق السلطان عوض بن عمر بجيشه وأصدر أمره بالهجوم، فنشطت مدفعية الجيش تضرب المدينة بقنابلها، ثم زحف الجنود إثر ذلك، وبعد قتال لم يدم طويلاً دخلوا الغيل بعد أن فر منها آل كثير وحلفاؤهم ولم يبق منهم سوى أفراد قلائل كانوا هدفاً لنيران بنادق الجيش القعيطي.

وكان آل عمر باعمر قد رحّلوا عائلاتهم وأطفالهم من الغيل، وغادرها كثير منهم إلى صهوت وريدة العليب مبتعدين عن الاصطدام بقوات القعيطي، ولم يبق منهم كما أخبرني ثقة من آل عمر باعمر إلا من خضع لإغراء آل كثير، وقد قتل عدد من هؤلاء وفر بقيتهم إلى صهوت وحصن العولقي، وحصر عمر بن سعيد البعوض بن عمر باعمر في بيته مع نفرين من عشيرته وثلاثة من مواليهم، وبعد مفاوضات خرجوا في أمان جماعة من يافع أوصلوهم إلى صهوت على بعد أميال غربي الغيل.

ونودي بالأمان إثر انتهاء المعركة، وفرق السلطان عوض بن عمر الحاميات على المدينة وضواحيها، وسمح لآل عمر باعمر بالعودة إلى منازلهم فعادوا بعد حوالي أسبوع من احتلال الغيل، ولكنهم على ما يظهر

لم يكونوا على استعداد لتناسي الماضي والدخول في عهد ودي جديد، وسرعان ما رفضوا دفع الضريبة التي فرضها القعيطي على حاصلات الغيل.

وأدرك القعيطي أنه لا يمكن الاطمئنان إلى وجود آل عمر باعمر في الغيل كقوة مسلحة غير مستعدة للتفاهم معه والرضوخ لأوامره، فاستدعاهم إلى الشحر، وسجنهم بعدما كبلهم بالحديد، ثم أطلق بعضهم بعد تفاهم واتفاق معهم على شروط حيث عادوا إلى الغيل وفر البعض من السجن، فلحقوا بالصومال الإيطالي من إفريقيا الشرقية، وتوجد الآن منهم عائلات كبيرة في مركه ومقدشوه.

❖ حصن العولقي:

الجمعدار عبدالله بن علي العولقي من أصحاب الرتب العسكرية الرفيعة في الهند، ومن المقربين لدى نظام حيدر أباد، وكان ذا ثروة واسعة وطموح إلى السلطة، ولما رأى نفوذ القعيطي يتسع في حضرموت وتتجه أنظاره إلى الساحل طمع هو الآخر في أخذ نصيبه من تركة الإمارتين المعرضتين للزوال في الشحر والمكلا أمام المتنافسين الأقوياء.

وسعى إلى توحيد جبهة مع آل كثير وآل عمر باعمر لجلاء يافع عن الساحل، وكان العولقي لا يخفي عداءه للقعيطي، بل بالعكس كان يتوعده ويهدده وأنه سيحول بالاشتراك مع حلفائه دون تحقيق مطامحه، وفي حديث له مع السلطان عوض بن عمر بالهند تبادلا فيه التهديد والوعيد، قال السلطان عوض للعولقي: إن حصنه بالصداع سيكون مصيره الخراب بأيدي يافع، وإن عليه نذراً أن ينقل جزءاً من ترابه بعد هدمه إلى حيدر أباد لينثره أمام العولقي والمتعصبين له من أعوانه، وقيل: إن السلطان عوض وفّى بنذره هذا بعد استيلائه على الحصن.

وتوفي العولقي سنة ١٢٨٤هـ في حيدر أباد، وخلفه ابنه الوحيد محسن بن عبدالله الذي ورث من أبيه عداء يافع والقعيطي، فاستمر هذا متعاوناً مع

آل كثير في إقلاق راحة القعيطي في الساحل وإثارة القلاقل والمشاغبات ضده، وكان سقوط الغيل في يد يافع فرصة للهجوم على حصن العولقي والبر بوعد السلطان عوض في هدمه وتخريبه.

وتحركت فرقة من الجيش الذي احتل غيل باوزير متجهة إلى الحصن الذي يقع شرقي مدينة الغيل بالقرب من الصداع، وكان قد تحصن فيه جماعة كبيرة من العوالق وآل عمر باعمر ومن انضم إليهم من البادية، ونظراً لضخامة الحصن ومناعته وقوة بنائه اكتفى السلطان عوض بضرب الحصار عليه عدة أشهر حتى أكلت حاميته الجلود والدم، وحاول العوالق أن يحصلوا على مساعدة عسكرية من آل كثير بذلوا لهم من أجلها الذهب والسلاح فلم يفلحوا.

وكانت تجري أثناء الحصار مناوشات حربية، ثم لم يقو المحاصرون حتى على إطلاق الرصاص من شدة الجوع، وحفر الجنود من يافع سراديب تحت الأرض عندما امتنع عليهم الحصن ليحرقوه بالبارود فسلّم أهل الحصن قبل أن تتم هذه العملية، وخرج من بقي منهم في حالة يُرثى لها، وبذلك تمكن القعيطي من القضاء على أهم مركز في الساحل كان يستخدم ضده.

❖ احتلال الموانئ الشرقية:

أرسل السلطان عوض بن عمر قبل احتلال الغيل ثلاثمائة مقاتل من الشحر إلى الحامي فاحتلوها سنة ١٢٨٧هـ، ثم احتلوا رأس باغشوة والقرن والديس بدون مقاومة تذكر.

وفي سنة ١٢٨٨هـ أرسل خمسمائة مقاتل احتلت قصيعر بعد قتال مع حاميتها، وبذلك تم احتلال الموانئ الشرقية جميعها وأصبحت المناطق المجاورة لهذه الموانئ تابعة لسلطة القعيطي.

❖ هجوم آل كثير على شبام:

كانت الانتصارات التي أحرزها القعيطي في الساحل سبباً في ازدياد نقمة آل كثير وتضاعف قلقهم، فانتهزوا فرصة ذهاب معظم يافع من شبام إلى القطن في ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ لقضاء أيام العيد هناك بين أهليهم، فهجموا على شبام يوم الزينة العاشر من ذي الحجة ودخلوها ونهبوا المتاجر وروّعوا السكان.

وكان في شبام الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي على رأس عدد قليل من يافع، فأرسل إلى القطن يطلب النجدة، فقدم عليه خمسمائة وسبعون مقاتلاً قاتلوا آل كثير في شوارع المدينة قتالا عَنيفاً حتى اضطروهم إلى الانسحاب بعد أن قتل منهم خمسة وعشرون، دفن عشرون منهم في موضع على مقربة من سدّة شبام عند نخلات تعرف الآن بنخل عشرين، وقتل من يافع سبعة.

❖ الخلاف بين القعيطي والكسادي:

في سنة ١٢٨٨هـ توفي النقيب صلاح بن محمد الكسادي حاكم المكلا قبل أن يتمكن من دفع المائة الألف الريال التي استدانها من القعيطي أثناء الحملة الكبرى على آل كثير، فطالب السلطان عوض بن عمر خليفته النقيب عمر بن صلاح وشدد عليه في المطالبة مغتنماً فرصة وجوده في المكلا على رأس قوة من جنده، فاضطر النقيب إلى الموافقة على التنازل عن نصف المكلا وعن بروم والحرشيات للقعيطي مقابل مائتين وخمسين ألف ريال يقتطع منها الدين الذي على والده، وكان ذلك سنة ١٨٧٣م.

وكان هذا التنازل الذي يبدو في الظاهر كتسوية للنزاع نذيراً بتفاقم فتنة بين القعيطي والكسادي، فقد أخذ النقيب عمر يفكر في التخلص من الفخ الذي وقع فيه، ولم يجد أحسن من الالتجاء إلى آل كثير مستعيناً بهم على خصمه القعيطي فأرسل إليهم سراً يحثهم على مهاجمة الشحر، ويخبرهم

بضعف حاميتها ويعدهم بالمساعدة، فطمعوا في النصر هذه المرة أو أرادوا أن يجربوا حظهم مرة أخرى، وأقبلوا بقبائلهم وعبيدهم وعسكروا في دفيقة بالقرب من الشحر تحت قيادة عبود بن سالم الكثيري، ولكنهم رجعوا خائبين بعد أن طال عليهم المقام بدون جدوى ودب في صفوفهم الفشل واستولى عليهم الملل.

وأرسل آل كثير مرة ألفاً وأربعمائة مقاتل إلى الكسادي لمساعدته في حرب القعيطي، فثارت حماسة يافع الموجودين بالشحر وطلبوا من السلطان عوض بن عمر أن يسمح لهم بالتعرض لهذا الجيش قبل أن يصل إلى الكسادي في المكلا فلم يوافقهم، ولكنهم تغلبوا عليه في النهاية وتجهز منهم ثلاثمائة مقاتل تحت قيادة عمر عوض القعيطي، وانضم إليهم من غيل باوزير مائتا مقاتل بقيادة سعيد أحمد الحضرمي، والتقى هذا العدد القليل من يافع بالجيش الكثيري في موضع يقال له «التّخْم».

وكان آل كثير قد دبروا خطة محكمة لتطويق يافع بعد أن تحصنوا في مواقع حصينة، ونشبت معركة حامية قتل فيها من يافع خمسة وأربعون ومن آل كثير اثنا عشر، ثم انسحبت جنود القعيطي وواصل الجيش الكثيري سيره إلى المكلا بعد أن حز رأسي القائدين اليافعيين عمر عوض القعيطي وسعيد أحمد الحضرمي، وكانا من بين القتلى، وسار بهما على رأس جريدة إلى المكلا، وقد بقي هذا الجيش مرابطاً في الحرشيات بضعة شهور، ثم عاد إلى الداخل دون أن يصنع شيئاً.

وكان هذا العداء السافر للقعيطي من جانب الكسادي من بين الأسباب التي جعلت السلطان عوض بن عمر يعجل بالتفكير في القضاء على سلطة الكسادي، أضف إلى ذلك أنه بينما كان السلطان عوض في المكلا أثناء اقتسامها مناصفة بينه وبين الكسادي دبر النقيب عمر بن صلاح مكيدة كاد يذهب السلطان عوض ضحيتها، ولكنه استطاع أن ينسحب بمن معه من

يافع بطريق البحر في وضع أثار غيظه وحمله على التعجيل بالحل النهائي لمشكلة الكسادي.

ولم يجد أفضل من أن يتجه إلى حكومة عدن التي قامت بدور الوسيط بينهما، واستدعت إليها النقيب عمر وأخذت منه ومن القعيطي وثيقة بالتحكيم، ثم أصدرت حكمها بأن خيّرت النقيب بين إحدى ثلاث: إما أن يدفع المائة الألف التي على والده للقعيطي حالاً، أو يتسلم من القعيطي مائة ألف أخرى ويتخلى له عن المكلا وينتقل هو إلى بروم، أو يتسلّم من القعيطي مائتي ألف ويتخلى له عن الإمارة بأسرها.

❖ تسليم المكلا إلى القعيطي:

ورفض النقيب عمر جميع هذه الخصال وطلب من حكومة عدن أن تعيده إلى المكلا ففعلت، وبعد عودته بنحو أسبوع وصلت بارجة حربية إلى المكلا خرج منها ضابط إنكليزي عرض على النقيب أن يقبل إحدى الخصال الثلاث التي عرضتها عليه حكومة عدن وقال له: إنه سيضطر - في حالة رفضه - إلى ضرب المدينة بالمدفع.

ولم يجد النقيب عمر بُداً من تسليم نفسه إلى قبطان البارجة «دراجون» التي أبحرت به إلى عدن في طريقه إلى زنجبار في نوفمبر سنة ١٨٨١م مفضلاً الجلاء عن المكلا على قبول الحكم، وحمل معه ما أمكن حمله من أموال وأمتعة في ثلاثة عشر مركباً شراعياً وسافر معه عدد من أتباعه وحاشيته.

ووجدت بخط بعض المعنيِّين بالتاريخ الحضرمي أن جلاء الكسادي عن المكلا كان في سنة ١٨٧٧م الموافق ١٢٩٤هـ، وبذلك دخلت المكلا وملحقاتها تحت سيطرة السلطنة القعيطية ونفوذها.

❖ معاهدة الحماية:

لقد أصبحت أهم الموانئ في الساحل الحضرمي تحت نفوذ القعيطي

وفي قبضته بالإضافة إلى شبام والقطن وحورة في الداخل، وكان له إلى جانب ذلك قوة تحمي سلطنته الناشئة وأنصار في طول البلاد وعرضها يؤيدونها بكل أنواع التأييد، وبذلك أضحت حقيقة واقعة، ولم يتردد ممثل الحكومة البريطانية بعدن في الاعتراف بها رسمياً باسم التاج البريطاني.

وكان السلطان عوض بن عمر قد اتخذ قراراً هاماً بالاشتراك مع أخيه عبدالله يقضي بضرورة الدخول في معاهدة رسمية مع الحكومة البريطانية لحماية سلطنتهما الناشئة من أي عدوان من الخارج أو الداخل، وبدأت المفاوضات فعلاً بواسطة المستر «هنتر» معاون حاكم عدن الذي قدم إلى الشحر لهذا الغرض.

وفي يوم الثلاثاء ١٣ فبراير سنة ١٨٨٨م الموافق ٢١ جمادى الثانية سنة ١٣٠٥هـ وقعت معاهدة الحماية هذه في الشحر أمضاها السلطان عوض بن عمر وأخوه عبدالله بحضور المستر «هنتر» ثم أمضاها حاكم عدن الجنرال «هوج» بعد ذلك عن الحكومة البريطانية.

وأهم نصوص المعاهدة: اعتراف القعيطي بأنه تحت حماية بريطانيا العظمى، وموافقته على أن لا يرتبط مع أية دولة أجنبية أو شركة إلا بعد رضى حكومة بريطانيا وموافقتها.

وفي مقابل ذلك تعهدت الحكومة البريطانية بأن تحمي الدولة القعيطية من اعتداء أية دولة أجنبية، وأن تساعد في قمع كل حركة عدائية ضده من الداخل، وهذه هي المعاهدة الأولى مع حكومة القعيطي.

❖ الأميران حسين ومنصّر:

في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٨م الموافق سنة ١٣٠٦هـ توفي الجمعدار عبدالله بن عمر بالشحر، فطالب ولداه حسين ومنصّر في الحال بنصيبهما في حكم البلاد، وكان الأول حاكماً في الشحر والآخر في غيل باوزير، واحتدم النزاع بينهما وبين عمهما وكاد يؤدي إلى فتنة، وفشلت كل تسوية

للخلاف، فاضطر السلطان عوض أن يلجأ إلى حلفائه الإنكليز الذين وافقوا على أن يغادر الأميران البلاد إلى الهند مقابل تعويض عن مطالبهما، وقد أرسلت حكومة عدن بارجة إلى الشحر نقلت الأمير حسيناً إلى عدن، ثم لحقه بها أخوه منصّر حيث سافرا منها إلى الهند، وبذلك أصبحت السلطنة محصورة في عقب السلطان عوض بن عمر فقط.

❖ وادي دوعن:

استمر الوادي بعد جلاء قوات الكسادي عنه على حالته من الفوضى والانقسام وفقدان الأمن والعدالة وتحكم الأقوياء في الضعفاء وإرهاق الأهالي بالضرائب الفادحة التي لا تقوم على أساس ولا تهدف إلى غاية سوى إشباع حاجة الرؤساء إلى المال الذي يقدمونه وقودا لِّلفتن والحروب المستمرة فيما بينهم.

ولم يستطع الأهالي صبراً على هذه الحالة التي لا يعرفون لها من آخر، فقدم المفكرون منهم عرائض الشكوى والتذمر إلى السلطان القعيطي الذي قام بمفاوضات مع حاكم الخريبة الشيخ عبدالرحمن بن علي بن عبدالكريم العمودي، وقد قبل هذا أن تخضع منطقة نفوذه للقعيطي مقابل مائتي ريال تدفع له شهرياً من ضرائب سوق الخريبة، ثم أعلن عصيانه وحبس بعض الذين قدموا عرائض الشكوى إلى القعيطي، فاضطر السلطان عوض بن عمر إلى حربه، ولم يثبت ابن عبدالكريم أكثر من أربعين يوماً هرب بعدها متوجهاً إلى جهة القبلة بعد أن قُتل جماعة من أصحابه.

ولم يلبث أن جمع عسكراً كثيفاً من البادية هاجم بهم الخريبة في رمضان واستولى عليها وأكثر من السلب والنهب، وأعد السلطان القعيطي عدته لحسم الموقف، فأرسل قوة كبيرة من المكلا بقيادة مولاه عبدالخالق الماس، وأشار على الأمير صلاح بن محمد بن عمر القعيطي أن ينجده بقوة من القطن، فقدم بنفسه إلى دوعن على رأس مائتي مقاتل، ووقف

حاكم بضة وزعيم آل العمودي الأكبر على الحياد كما وقف غيره من آل العمودي ومنعوا أتباعهم من القبائل أن يساعدوا ابن عبدالكريم.

واستنجد حاكم الخريبة بقبائل الديّن والقشم فجاءه ألف وخمسمائة منهم، واشتبكوا في معارك متعددة انتهت بهزيمة العمودي واحتلال الخريبة وما تحت نفوذه من قرى دوعن سنة ١٣١٧هـ بعد أن تكبد الجيش القعيطي مشقات، وعانى صعاباً كثيرة، ثم أسند حكم الوادي إلى المقدم عمر بن أحمد باصُرَّة الخامعي السيباني الذي قدّم للجيش القعيطي مساعدة فعّالة في حربه للعمودي.

وقد كان القعيطي مبتعداً عن الاصطدام بقبائل ليسر حتى بدأت قبائل هذا الوادي تتحكك بجنود القعيطي من يافع، وحصل نزاع بين الخنابشة سكان الجحي وبين آل باهبري الذين استنجدوا بالحالكة سكان وادي ليسر، فتدخل المقدم عمر بن أحمد باصُرَّة لمساعدة الخنابشة وأمدهم بالمال والسلاح وبالجنود من يافع وأرسل القعيطي من المكلا ذخائر وأسلحة، واستمرت الحرب نحو ستة أشهر انتهت باندحار قبائل الحالكة، وبعد بضع سنين وصل إلى المكلا رؤساء آل بلحمر مع بقية زعماء الحالكة وبعض آل العمودي وحالفوا القعيطي، وبذلك انضم وادي ليسر إلى سلطته.

❖ منطقة حجر:

يسكن هذه المنطقة ويسيطر عليها قبائل أشداء معظمهم من نوّح يتقاسمون السلطة فيما بينهم، وفي هذه المنطقة يوجد نهر حجر العظيم الذي يمر بأجود الأراضي الصالحة للزراعة وغراسة النخيل وأشجار الفاكهة، وهي بعد ذلك من المواقع المهمة للدفاع، وبها مراكز استراتيجية ذات أهمية كبرى، ولذلك فقد أدرجها السلطان عوض بن عمر ضمن برنامجه، وتمنى على الله أمام الكعبة الشريفة عندما زارها حاجاً أن لا يميته حتى يضمها إلى سلطنته.

وفي سنة ١٣١٧هـ جهز ستمائة مقاتل من يافع وآل تميم لاحتلال هذه المنطقة، وعلمت بهم قبائل حجر فكمنوا لهم في رؤوس الجبال المشرفة على الوادي الذي سيمر به الجيش القعيطي، وبينما كانت الجنود تسير في طريقها آمنة مطمئنة انهمرت عليها طلقات الرصاص كالمطر من المواقع التي كمنت فيها القبائل، فذعر الجيش الذي فوجئ بهذه المعركة على حين غرة وحاول الدفاع دون جدوى، فانسحب تاركاً ثلاثة وستين قتيلاً.

لم تضعف هذه الهزيمة من عزيمة القعيطي ولم تصرفه عما عقد العزم عليه من احتلال هذه المنطقة الغنية الخصبة، فأعاد الحملة عليها سنة ١٣١٨هـ حيث أرسل مائتي مقاتل من يافع وبمعيتهم وزيره السيد حسين بن حامد المحضار وزوده بالمال لشراء أراض بوادي حجر تكون نواة للتدخل في هذه المنطقة، واستطاع المحضار بحكمته ودهائه أن يعقد حلفاً بين الحكومة القعيطية وبين قبائل حجر، وكان الحلف فاتحة النفوذ القعيطي في هذا الوادي، فقد تم بعده بالتدريج خضوع جميع قبائل حجر وميفع، ودخلت هاتان المنطقتان تحت حكم الدولة القعيطية وأصبحتا جزءاً من السلطنة ومن أحد ألويتها الهامة، وسوف يظل هذا الجزء المهم من الدولة مصدراً عظيماً للثروة القومية إذا اتجهت النية الصادقة إلى استغلاله والاستفادة منه.

❖ وصيته، وفاته:

وتفادياً للنزاع والشقاق بين خلفائه كتب السلطان عوض بن عمر وصيته في سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٨م والتي تنص على أن يكون خليفته الأول بعد وفاته ابنه السلطان غالب، ثم ابنه الآخر عمر بن عوض، ثم حفيده صالح بن غالب، كما نصت على أن يكون الثاني في الخلافة نائباً عن الحاكم في المكلا عندما يكون الآخر في الشحر والعكس بالعكس، كما يجب أن يكون هذا كبير موظفي الدولة - أي رئيس الإدارة - وتعرضت هذه الوصية

لتعيين نواب عن الحاكم في مدن الألوية وواجباتهم في تقديم الحسابات له عن الدخل والصرف وغير ذلك من تعليمات رآها لازمة للمحافظة على أملاك العائلة في الهند وحضرموت.

وفي سنة ١٣٢٥هـ ١٩٠٩م توفي السلطان عوض بن عمر في الهند في حيدر أباد، حيث احتفل بجنازته احتفالاً يليق بمركزه البارز في هذه الإمارة الهندية، وشيّع إلى مرقده الأخير بين ثناء المعجبين وصالح دعواتهم.

لقد أدرك عوض بن عمر هذه السلطنة فكرة في رأس والده، ثم صحبها مشروعاً ضخماً وقف حياته لتحقيقه وإخراجه إلى حيز الوجود، ثم غادرها حقيقة واقعة تتمثل في أكبر رقعة من القطر الحضرمي تمتد في الساحل من حدود قصيعر شرقا إلًى منطقة حجر غرباً، وتتكون نواتها في الداخل من المساحة الواقعة ما بين شبام في الشرق وحورة في الغرب، وتربطها بأكثر القبائل وثائق حلف تطورت بعد ذلك إلى نفوذ شمل جميع المناطق التي تسكنها هذه القبائل، ولم يشأ أن يترك هذه السلطنة الناشئة عرضة للعواصف والتقلبات، فعقد مع بريطانيا العظمى معاهدة الحماية لهذه الدولة، فليرقد رقدته الأخيرة مطمئناً إلى نجاحه، واثقاً من قوة بناء السلطنة وثباته.

وبمقتضى وصيته خلفه في السلطنة ابنه الأكبر السلطان غالب المتوفى سنة ١٣٤٠هـ ١٩٢٢م، وكان شهماً جواداً معروفاً بحب الخير والرحمة بالضعفاء والمحتاجين والإحسان إليهم، كثير المحبة لشعبه وإسداء الخير له.

ثم تولاها بعده السلطان عمر بن عوض الذي اهتم بتنظيم الجيش حتى أصبح قوة فعالة منظمة ذات فائدة كبيرة للمحافظة على الأمن في البلاد، وفي عهد هذين السلطانين حصلت إصلاحات في تنظيم الجهاز الحكومي، وأنشئت محاكم رسمية ومصلحة للجمارك في المكلا يقوم عليها موظفو الدولة، وحصل اهتمام بالتعليم والصحة العامة، إلى غير ذلك من أوجه

الإصلاح.

وبعد وفاة السلطان عمر سنة ١٣٥٤هـ تولى السلطنة صاحب العظمة السلطان صالح بن غالب الذي كان عهده نقطة تحول في التاريخ الحضرمي بأجمعه.